مقاربة أسلوبية لخطبة "القاصعة" في نهج‌البلاغة

سيد مهدى مسبوق
أستاذ مشارك في اللغة العربية وآدابها بجامعة بوعلى‌سينا في همدان – إيران
(الكاتب المسؤول)
smm.basu@yahoo.com
رسول فتحى مظفري
دكتوراه في اللغة العربية وآدابها بجامعة بوعلى‌سينا في همدان - إيران
جواد محمد زاده
دكتوراه في اللغة العربية وآدابها بجامعة بوعلى‌سينا في همدان - إيران

الملخص

يتألف "نهج‌البلاغة" من الخطب، والرسائل، والحكم التي تمتاز بالمعني والمضمون، والحروف والمفردات والجمل والأسلوب؛ بحيث يعدّ الجانب البلاغي فيه آيةً من آيات كلام الإمام علي(عليه السلام) المعجز. قاربت هذه الدراسة البني الأسلوبية في إحدي خطبه الغراء المسماة بالقاصعة واعتمدت في تحليلها المعتمد علي المنهج الوصفي التحليلي علي خمسة مستويات هي الصوتي، والتركيبي، والمعجمي، والبلاغي والفكري. تكررت في المستوي الصوتي المحسنات البديعية كالطباق وتنسيق الصفات، حيث لعبت دوراً رئيساً في خلق الجو الإيقاعي، وفضلا عن ذلك أفاد الإمام(عليه السلام) من التقنيات الأخري كالتكرار الصوتي والموسيقي اللفظية ليزيد من نغمة كلامه. وقد أفاد في المستوي التركيبي من الجمل الإنشائية والخبرية، وقصار الجمل واستخدم الأساليب الأخري كالتقديم، والحصر وأدوات التأكيد للتعبير عن معانيه المقصودة. تميزت الخطبة في المستوي المعجمي باستخدام التعابير المركبة، وخاصة التراكيب الإضافية. أما في المستوي البلاغي فاستطاع الإمام(عليه السلام) أن يستخدم أنماطاً من التراكيب المجازية كالاستعارات التمثيلية، والإضافات التشبيهية، والكناية ليخلع علي كلامه صورة أدبية حية تدل علي مدي خياله وفصاحة لغته، كما تبيّن لنا أن الفكرة التي تتمحور عليها الخطبة هي التعبير عن المعاني التوحيدية، والاهتمام بالجهاد، والتحذير من الشيطان، ولزوم الاتحاد في المجتمع الإسلامي، والاعتبار من الماضين و فلسفة ابتلاء الله خلقه.

الكلمات المفتاحية: **نهج‌البلاغة**، **الخطبة القاصعة**، **البنى الأسلوبية**.

١. المقدمة

اهتم النقاد والباحثون بالنقد والتحليل ودراسة النصوص الأدبية منذ القدم ولكل ناقد أسلوبه الفكري والأدبي في دراسة الأعمال الأدبية وتبيان خصائصها وقيمتها الفنية. تعد الأسلوبية من الأنماط البديعة في مسار نقد النصوص الأدبية وهي فرع من فروع اللسانيات الجديدة والتي احتلت مكانة متميزة في البحوث النقدية. تهتم الأسلوبية في دراسة الأعمال الأدبية، بلسان النص وتحليل ميزات انفرد بها أثر الأديب، وتميط اللثام عن القيم الجمالية والفنية فيه وتعتمد علي الأصل القائل إن الأدب هو فن كلامي تكمن قيمته الرئيسة في كيفية التعبير عن مضمون ما.

إن نهج‌البلاغة لجة عميقة من العلوم والمعارف المختلفة وكان ولا يزال يهتم به النقاد؛ لأنّه يختزن المفاهيم الإنسانية العالية والتعابير الفنية الجميلة. إن هذه الدراسة جعلت الأسلوبية أساسا للبحث والنقد وهدفت إلى استجلاء الظواهر الأسلوبية في الخطبة الموسومة بالقاصعة في خمسة مستويات. تتناول في المستوي الأول المميزات الصوتية للخطبة وتدرس مصادر الإيقاع فيها من خلال صفات الحروف، تنسيق الصفات والموسيقي المعنوية التي تتجلّي في التقابلات المعنوية والصور الإيحائية، أما المستوي الثاني المسمي بالتركيبي فتتطرق الدراسة فيه إلي بني الجمل العميقة والسطحية، وفي المستوي الثالث تستعرض مواطن الجمال في المفردات. وفي المستوي الرابع أو البلاغي تتوقف علي جماليات التعابير المجازية، والصور الاستعارية والكنايات والتشبيهات التي وردت في الخطبة وتعد من روافد الأسلوبية فيها. وفي المستوي الأخير - وهو المستوي الفكري- تتناول الأفكار والمعاني التي تتمحور عليها الخطبة وتقوم بدرسها وتحليلها.

٢. خلفية البحث

لما كان الإمام علي(عليه السلام) قد تلقّب بأمير البيان ويعدّ كلامه بعد كلام الله تعالي ورسوله معجزاً وتقع في غاية البلاغة والفصاحة، فقد ألفت بحوث شتي في دراسة الجوانب الأدبية لهذا الكتاب منها: أطروحة الدكتوراه للباحث سعد صباح جاسم

المسمّي بـ «المباحث اللغوية في منهاج البراعة في شرح نهج‌البلاغة» التي نوقشت في جامعة المستنصرية. ومقالة «الطباق والمقابلة في خطب الإمام علي(عليه السلام) في نه البلاغة دراسة بلاغية- دلالية» بقلم حسين صالح، والتي نشرت في مجلة ميسان للدراسات الأكاديميه. أمّا في الفارسية فقد ألفت مقالات شتي منها: «بررسي سبك‌شناختي فرمان حكومتي امام علي (عليه السلام)به مالك اشتر»، بقلم محمد خاقاني والمنشورة في فصلية"كتاب قيم" المحكمة وأيضاً كتاب «سيري در زيبايي‌هاي نهج‌البلاغه»، للكاتب مرتضي قائمي وكثير من البحوث الأخري التي لايمكن ذكر جميعها في هذه الورقة. أما هذه الدراسة فتميزت في كونها ركزت علي خطبة القاصعة ودرسها من منظور الأسلوبية وبحثت عن البني الأسلوبية فيها لتثبت السمة الأسلوبية التي اتسمت بها الخطبة فدراستنا من هذه الجهة جديدة لم يتطرق إليها أحد.

٣. بين يدي خطبة "القاصعة"

سمّيت هذه الخطبة بالقاصعة لأنّها تتضمّن تحقير إبليس وتصغيره وهي أطول خطبة في نهج‌البلاغة تتمحور علي مجموعة من القضايا الأخلاقية والتربوية وذم التكبّر الذي يُعد المحور الأساسي للخطبة، وهذه الخطبة أشارت إلى ما أثاره الناكثون والقاسطون والمارقون من حروب وتأجيج الناس في أواخر خلافة الإمام علي(عليه السلام) (ابن ميثم، ١٣٦٢: ٤٠١). تحوي هذه الخطبة تسعة عشر مفهوماً منه: عظمة الله تعالي، وتوبيخ تكبر الإنسان، ومعالجة التكبر، والتحذير من عداوة الشيطان، والتحذير من العادات الجاهلية، والتحذير من رؤساء المارقين، ولزوم الاعتبار، وفلسفة ابتلاء الله، والبعد من الظلم والجور، وفلسفة العبادات الإسلامية، والتعصب المحمود وغير المحمود، وسبب نجاح الأمم وهزيمتها، وتداعيات مبعث الرسول(صلى الله عليه وآله)، وبواعث توبيخ أهل الكوفة، والمثل العليا للإيمان.

٤. مصطلح الأسلوبية

إذا أردنا معرفة مصطلح أدبي ما، فلابدّ من الخوض في امتداداته لكي نوضّح بشكل أدق، المفاهيم التي نبتغي في هذا المقال دراستها. إن مصطلح الأسلوبية مصطلح جديد في الإسم، منبعث في العصر الجديد، متأثر بعلوم اللغة والدرس اللساني الحديث وهي نشأت في بطن الدراسات اللغوية و«لم يظهر إلاّ في بداية القرن العشرين مع ظهور

الدراسات اللغوية التي قررت أن تتخذ من "الأسلوب" علماً يدرس لذاته أو يوظف في خدمة التحليل الأدبي» (درويش، لاتا: ١٨) وهذا المصطلح «هو الذي يطلق عليه في الانجليزية stylistics وفي الفرنسية la stylistique والباحث الأسلوبي هو stylistician» (عبدالمطلب، ١٩٩٤: ١٨٥). وقيل علم الأسلوب فرع من فروع الدرس اللغوي الحديث يهتم ببيان الخصائص التي تميّز كتابات أديب ما، أو تميّز نوعاً من الأنواع الأدبية بما يشيع في هذه أو تلك من صيغ صرفية مخصوصة، أو أنواع معيّنة من الجمل والتراكيب أو مفردات يؤثرها صاحب النص الأدبي (جبر، ١٩٩٨: ٦).

٥. المستويات الخمسة في خطبة "القاصعة"

إن الأسلوبية في إجراءاتها النقدية تتبع من مستويات لدراسة النص، أولها المستوي الصوتي وهو الذي يتناول فيه الدارس ما في النص من مظاهر الإتقان الصوتي ومصادر الإيقاع فيه. ويتناول الدارس الأسلوبي في المستوي المعجمي استخدام المنشئ للألفاظ وما فيها من خواص تؤثر في الأسلوب كتصنيفها إلي حقول دلالية ومعرفة النوع الغالب من الألفاظ ويدرس الناقد أيضاً طبيعة هذه الألفاظ ويجيء المستوي الثالث من الدراسة للاهتمام بالتراكيب، وتصنيفها، وتكشف عن عدول الأديب عن النمط العادي في رص الجملات بالتقدم والتأخر والحذف وإلخ وهنا يأتي دور الأسلوبية التركيبية أو النحوية في دراسة العلاقات والترابط والانسجام الداخلي في النص. أمّا البنية التعبيرية الجمالية فهي تدرس في المستوي الدلالي فنتساءل عمّا يوحّد كل هذه العناصر والصور والمجازات والاستعارات وآخر ما نتأمل في الدرس الأسلوبي هو المستوي الفكري (أنظر: محمود خليل، ٢٠١١: ١٦٥-١٦٦).

٥-١. المستوي الصوتي

الدراسة الصوتية تعد المحور الأول للدخول إلي النص الأدبي وبداية الولوج إلي عالمه وفهمه وإحساس بوعي لما فيه من قيم جمالية، فالصوت هو الوحدة الأساسية للغة التي يتشكل منها النص الأدبي، لأنَّ الألفاظ أصوات ذات جرس نتخذها كوسيلة للتعبير عن الدلالات أو الخواطر التي تجول في أذهاننا (الخولي، ١٩٦١: ٢٦٧). إن منابع الموسيقى الظاهرة في الكلام الأدبي معروفة تماما ، فهناك: أولا: الموسيقى النابعة من تآلف أصوات الحروف في اللفظة الواحدة، والحروف أصوات متفاوتة الجرس، يقرع

بعضها بعضا حين تجتمع في اللفظ، وينتج عن تناغم قرعها سلم موسيقي جميل (عاصي، لاتا: ١٢٢). ثانيا: الموسيقى النابعة من تآلف مجموعات الموسيقى اللفظية حين ينتظمها التركيب في الفقرات والجمل، فالألفاظ المفردة تقرع الألفاظ المفردة المجاورة لها سابقا ولاحقا، وينجم عن تناسق تقارعها سلالم موسيقية جميلة (المصدر نفسه والصفحة). تعتمد موسيقى التركيب النثري في خطبة "القاصعة" على مرتكزين: أولاً: انسجام الألفاظ وتآلف أصواتها، وقد بحثه القدماء تحت عنوان فصاحة الألفاظ مفردة ومجتمعة. ثانياً: الإيقاع الموسيقي الذي ينشأ من وجود بعض المحسنات البديعية في التركيب.

٥-١-١. موسيقي الحروف

من أهداف هذه الخطبة الرئيسية، تجسيد المعاني من خلال اختيار الألفاظ التي تلائم مقتضي الحال، حتى تؤثر في السامعين وتجعلهم يعيشون الموقف بأوضح صورة وأجمل بيان، علي هذا الأساس نجد الجرس الموسيقي من خلال تصور المعنى يختلف من حين إلى آخر. لما كان الإمام علي(عليه السلام) قد استخدم الأساليب المؤكدة في هذه الخطبة لإقناع المخاطبين، نري أنّه آثر الكلمات التي ذات الصفات القوية منها كلمة "القاصعة"، إذا أمعنا النظر في حروف هذه الكلمة من حيث الصفات التي يضمها كل حرف نصل إلي هذه الاحصائية: تحتوي "القاف" علي خمس صفات قوية (الجهر، الشدة، الإصمات، الاستعلاء والقلقلة) وعلي صفة ضعيفة (الانفتاح) وتحتوي "الصاد" علي أربع صفات قوية (الاستعلاء، الإطباق، الإصمات والصفير) وعلي صفتين ضعيفتين (الهمس والرخاوة) وتحتوي "العين" وهي من الحروف الحلقية، علي صفة (الجهر) ومجموع هذه الصفات يدلّنا علي أن الصفات القوية والشديدة تطغي علي الصفات الضعيفة وقد تعمد الإمام(عليه السلام) اختيار هذه الكلمة ليزدري بالعادات الجاهلية بشكل جميل. أمّا بالنسبة للكلمات التي نراها في هذه الخطبة، نري أنّها تلائم مع معناها العام، علي سبيل المثال: «فلعمري لقد فوّق لكم سهم الوعيد، وأغرق إليكم بالنزع الشديد» في هاتين الجملتين، حذّر الإمام علي(عليه السلام) السامعين من عداوة إبليس وقد جاء بأدوات التؤكيد منها "القسم" وحرف "لقد" واختار الكلمات ذات الصفات القوية لكي يزيد من تؤكيد الجملة، فإليكم كلمة "أغرق": أصل هذه الكلمة (غرق) بمعني الخوض في الماء والمصيبة.

اذا تتبعنا الصفات الموجودة في بنية الكلمة رأينا أن الصفات القوية فيها أكثر من الصفات الضعيفة؛ لأن "الغين" تشتمل علي ثلاث صفات قوية (الجهر، الاستعلاء والإصمات) وعلي صفتين ضعيفتين (الرخوة والانفتاح) و"الراء" وهي من الحروف التكرارية ذات ثلاث صفات قوية (الجهر، والانحراف والتكرير) وعلي صفتين ضعيفتين (التوسط والاستفال) وتشمل "القاف" علي خمس صفات قوية (الجهر، والشدة، والإصمات، والاستعلاء والقلقلة) وليست فيها صفة ضعيفة إلا صفة (الانفتاح) ومجموع الصفات فيها يقودنا إلي وجود ست عشرة صفة، حيث إحدي عشرة منها قوية وخمس منها ضعيفة، مما يدلنا علي أنّ الإمام علي(عليه السلام) استطاع أن يصوّر لنا مشهد هلاك الإنسان علي يد إبليس.

٥-١-٢. تنسيق الصفات

من أهم الظواهر الإيقاعية في أسلوب هذه الخطبة هو ظاهرة تنسيق الصفات التي كسبت عيّنة أسلوبية بسبب كثرة تكرارها فيها وهو يعني توالي العديد من الصفات في نظم خاص، بحيث إن هذه الصفات نفسها تخلق الموسيقي الداخلية. (شفيعي‌كدكني، ١٣٨٦: ٣١٢) علي سبيل المثال قال الإمام علي(عليه السلام): «فالأحوال مضطربة، والأيدي مختلفة، والكثرة متفرّقة؛ في بلاء أزلٍ، وأطباق جهلٍ من بنات موؤودة، وأصنام معبودة، وأرحام مقطوعة، وغارات مشنونة». نري أن هذه الصفات المتتالية، تم توظيفها في سياق معين وخضعت للتناغم والانسجام، فمن ثم قد أحدثت ضروباً من الموسيقي والنغم، حيث إن هذه الموسيقي التي تنبعث من الصفات المتتالية تخلق في النفس طربا وفي الأذن ارتياحاً لا يدرك القاريء في كثير من الأحيان سبباً له. يتمثل المثال الآخر لهذه المحسّنة في هذه الجملة: «فإن كان لابد من العصبية فليكن تعصبكم لمكارم الخصال، و محامد الأفعال، ومحاسن الأمور، التي تفاضلت فيها المجداء والنجداء من بيوتات العرب ويعاسيب القبائل؛ بالأخلاق الرغيبة، والأحلام العظيمة، والأخطار الجليلة، والآثار المحمودة». استعان الإمام في هذا المقطع بعديد من التراكيب الوصفية ليخلق موسيقي مستساغة؛ من إضافة الصفة إلي الموصوف التي تمثلت في هذه التراكيب (مكارم الخصال، محامد الأفعال، محاسن الأمور) إلي التراكيب الوصفية الأخري التي وردت في نهاية المقطع إضافة إلي محسّنة "الجناس" في الكلمتين (المجداء و النجداء).

٥-١-٣. الموسيقي المعنوية

ليست الموسيقي المعنوية أو الفكرية إيقاعا صوتيا فإنما هي صوت غير مسموع يجري في النفس يشبه من جهة التأثير بالأصوات المسموعة في الموسيقي. ليست الموسيقي في النص الأدبي ناتجة عن الإيقاعات الصوتية المعروفة كما نري في سائر الفنون منها الرسم والنحت و... (رجايي، ١٣٧٨ : ١٨٢). ومصدرها في العمل النثري كثير منه: المفارقة أو الطباق النفسي هو من المصادر الرئيسية لخلق الموسيقي المعنوية التي تنجم عن الكلمات الايحائية أو الملهمة. (المصدر نفسه) قد حظيت هذه الخطبة بالموسيقي المعنوية لخلق الإيقاع كقوله: «ولا تطيعوا الأدعياء الذين شربتم بصفوكم كدرهم، وخلطتم بصحتكم مرضهم وأدخلتم في حقكم باطلهم وهم أساس الفسوق وأحلاس العقوق اتخذهم إبليس مطايا ضلال». قد أحدث الإمام في هذه الجملة التقابل المعنوي بين كلمات (صفو، كدر)، (صحة، مرض) و(حق وباطل) وقد خلق "تراسل الحواس" في جملة (شربتم بصفوكم كدرهم) والذي يعدّ نمطاً من الصور الإيحائية والرمزية وقد استخدم الإمام(عليه السلام) في المقطع تركيب (مطايا ضلال) وهو تركيب إضافي تشبيهي ليضيف إلي النص الموسيقي الجميلة، حيث نري أنه شبّه الضلال بمركب يقود الإنسان الضال إلي الهلاك. إذا أمعنا النظر في الخطبة رأينا أن الموسيقي المعنوية لم تنحصر في التقابلات أو تراسل الحواس فإن الصوت الناجم من البيئة هو عنصر آخر من الموسيقي المعنوية، حيث نسمع الأصوات التي أخذها الإمام من البيئة الحية مثل هذه الجملة: «فوالذي بعثه بالحق لانقلعت بعروقها وجاءت ولها دويّ شديد وقصف كقصف أجنحة الطير» نري أن الإمام(عليه السلام) شبّه الصوت الناجم عن انتزاع الأشجار من أصلها باشتداد صوت أجنحة الطير مما أدّي إلي خلق الموسيقي المعنوية في النص.

٥-٢. المستوي المعجمي

يتناول الدارس الأسلوبي في هذا المستوي استخدام المنشئ للألفاظ وما فيها من خواص تؤثر في الأسلوب كتصنيفها إلي حقول دلالية ودراسة هذه التصنيفات ومعرفة النوع الغالب من الألفاظ. يدرس الناقد أيضاً طبيعة هذه الألفاظ وما تمثله من انزياحات في المعني. فهل في النص ألفاظ غريبة، حوشية، أو ألفاظ مألوفة دارجة. وهل هذه الألفاظ وضعت في سياق مغاير بحيث تكتسب دلالات جديدة (محمود خليل، ٢٠١١ :

١٦٥). أمّا بالنسبة لهذه الخطبة فنحاول إلقاء نظرة على الخصائص العامة للألفاظ الأساسية التى اعتمد عليها الإمام علي (عليه السلام)للتعبير عن حالاته، خاصة أن مسألة الألفاظ تعد من المسائل اللمثيرة للانتباه في نقد النثر. والممعن في ألفاظ هذه الخطبة يجدها غير غامضة، حيث استمد الإمام(عليه السلام) مادته اللغوية من القرآن الكريم كما استمدها من الأمثال والتاريخ وغيرها. تظهر في الخطبة كلمات ذات خصوصية، قد تكون مجرد مفردات عادية، ولكن لها في داخل الخطبة إيحاءات ودلالات متميزة ومن تلك المفردات:

٥-٢-١. إضافة الصفة إلي الموصوف

غالباً ما نري أن الإمام علي (عليه السلام) عدل عن القوانين السائدة في المعيار النحوي ليثير انتباه القارئ ومن هذه الظاهرة العدولية هي إضافة الصفة إلي الموصوف، حيث إن كثرة تكرارها في الخطبة تجعلها خاصة أسلوبية. علي سبيل المثال، إذا أراد الإمام أن يبيّن للقارئ فلسفة العبادات الإسلامية يقول: «**ولما في ذلك من تعفيرِ عتاق الوجوه بالتراب تواضعاً والتصاق كرائم الجوارح بالأرض تصاغراً ولحوق البطون بالمتون من الصيام تذللا**» اللافت في هذا المقطع أن الإمام(عليه السلام) عدل عن المعيار النحوي في التراكيب التي أضيفت فيها الصفة إلي الموصوف مثل (عتاقالوجوه، كرائمالجوارح ولحوقالبطون) وتكون البنية الأصلية لهذه التراكيب هي (الوجوه العتيقه، الجوارح الكريمه والبطون اللاحقه) لكن انزاح الإمام(عليه السلام) عن هذا المعيار ليستلفت انتباه القارئ، ويزيد من إيجاز النص. وفي موضع آخر يأتي بمثل هذه التراكيب حيث قال: «**واحذروا ما نزل بالأمم قبلكم من المثلات بسوء الأفعال وذميم الأعمال**» تتمثل البنية الأصلية لهذه التراكيب في صورة (الأفعال السيئة والأعمال الذميمة) لكن البنية السطحية تأتي علي تقديم الصفة علي الموصوف بحيث تمنح النص الموسيقي الرتيبة . إليكم الشواهد الأخري لهذا العدول: «**فإن كان لابد من العصبية فليكن تعصبكم لمكارم الخصال ومحامد الأفعال ومحاسن الأمور التي تفاضلت فيها المجداء والنجداء**».

٥- ٢- ٢. الإضافة التشبيهية

الإضافة التشبيهية هي تركيب يضاف فيه (مشبه به) إلي (المشبه). قد كثر توظيف هذا النمط من التشبيه الذي يسمّي في البلاغة بالتشبيه البليغ في الخطبة مما يدل علي

معرفة أمير البيان بدقائق هذه اللغة. علي سبيل المثال إذا أراد الإمام أن يتذكر عداوة إبليس يقود الكلام إلي قصّة قابيل الذي أوغرت قلبه نار الحقد: «**وقدحت الحميةُ في قلبه من نار الغضب، ونفخ الشّيطانُ في أنفه من ريح الكبر الذي أعقبه الله به الندامة**». إذا أمعنا النظر في الجملة رأينا أن الإمام(عليه السلام) جاء بتركيب (نار الغضب) حيث شبّه فيه الغضب - وهو أمر معنوي- بالنار وهي أمر حسّي والتي إذا التهبت تهدم كل ما حولها من االغث والسمين وفي تركيب (ريح الكبر) شبّه الكبر بالريح التي تهلك الأشياء في سرعتها. يكمن الغرض الرئيسي لهذا التشبية في إيجازه وتصويره حيث يصوّر لنا مشهداً حسياً ملموساً. ويقول في موضع آخر: «**ونازع الله رداء الجبريه، و ادّرع لباس التعزز، و اخلع قناع التذلّل**». نري أن الإمام(عليه السلام) استمد في هذه التراكيب من الإضافة التشبيهية، حيث شبّه الأمور المعنوية فيها بالأمور الحسّية ليثبت المعني في ذهن القارئ. شبّه في هذه التراكيب (الجبريه، التعزز والتذلل) وهي من الأمور المعنوية بـ (رداء، لباس وقناع) وهي من الأمور الحسّية، بمعني آخر كما ستر اللباس والرداء سوءات الإنسان وتمنع العظمة والعزة الإنسان من الذل ويصل به إلي ذروة الكمال.

٥- ٢- ٣. إضافة المصدر إلي معموله

من السمات الأسلوبية في هذه الخطبة استخدام ألوان مختلفة من المصادر التي كثيراً ما تضاف إلي معمولها، الأمر الذي لا يؤدّي إلي خلق القالب الموجز فحسب بإنما يعطي النص الموسيقي الرتيبة المستساغة والتي سببها تتابع الإضافات مثل قوله: «**ولما في ذلك من تعفير عتاق الوجوه بالتراب تواضعاً والتصاق كرائم الجوارح بالأرض تصاغراً ولحوق البطون بالمتون من الصيام تذللا مع ما في الزكاة من صرف ثمرات الأرض وغير ذلك إلي أهل المسكنة والفقر. أنظروا إلي ما في هذه الأفعال من قمع نواجم الفخر، وقدع طوالع الكبر**». اللافت في هذا المقطع أن المصادر أضيفت إلي معمولها ويعدّ هذا الأسلوب أخصر طريق لإيصال المعني إلي ذهن المخاطب، بحيث حسّن الإمام كلامه بتراكيب ظاهرها قليل وباطنها مفعم بالمعاني النبيلة. ومن النماذج الأخري التي يخلق فيها توالي المصادر الموسيقي الرتيبة هي: «**فتعصّبوا لخلال الحمد من الحفظ للجوار، والوفاء بالذمام، والطاعة للبر، والمعصية للكبر، والأخذ بالفضل، والكف عن البغي، والإعظام للقتل، والإنصاف للخلق، والكظم للغيظ، واجتناب الفساد في الأرض**».

أفاد الإمام(عليه السلام) في هذا المقطع من مختلف المصادر ليرغب المتلقي في التعصب المحمود كما أضفي علي النص لوناً من الإيجاز والموسيقي.

٥- ٣. المستوي التركيبي

من الواضح أن الأصوات والبني والكلمات في النص الأبي يتعامل بعضها مع بعض لخلق المعني وحصول القيم المعنوية بواسطة العلاقة التي نجدها بين العناصر المتكونة للجملة. إنّ دراسة هذه العناصر وقرائتها تستلزم معرفة قوانين الجملة وأصول تراكيبها ولايعالج هذه القوانين إلا علم النحو، إذن علم النحو يعني «دراسة العلاقات بين الأنماط اللغوية في الجملة وكيفية نظم الكلمات وتنسيقها وتوخّيها» (فتوحي، ١٣٩١: ٢٦٧). إن البحث النحوي هو بحث معياري والغرض منه التعبير عن الجمل بأصحها وأدقها، في الحقيقة، يكمن الغرض الرئيسي للنحو في صحة استخدام الجمل (جبر، ١٩٨٨ : ١٥) للنحو غايتان غاية تعليمية وهي معرفة الصواب والخطأ في ضبط آخر الكلم أي تمييز صحيح الكلام من فاسده وله غاية جمالية أيضا وهي تطبيق الجملة وإعادة بنائها بمقتضي الدافع الكامن في نفس مستعملها مع وجود قواعد عامة تنظم هذه الأبنية تنظيماً جيداً (محمود خليل، ٢٠١١: ١٦١).

٥- ٣- ١. الجمل الخبرية والإنشائية

الجملة، أو الكلام، هي ما تركب من الكلمتين أو أكثر، ولها معني مفيد مستقل، ولا بدّ فيها، من أمرين معاً هما: التركيب والإفادة المستقلة. إنّ العناصر المتكوّنة في الجملة اثنان: المسند والمسند إليه وعلي أساس هذين الركنين تنقسم الجمل إلي القسمين: الفعلية والإسمية. ترتكز البنية النحوية في خطبة "القاصعة" علي وصف نظام الجملة فيها ونسق العبارة وكيفية تنسيقها وقد تراوحت الجمل فيها بين الفعلية والإسمية.

إنّ الخبر هو كلام يحتمل الصدق والكذب، حيث الكلام تعبير عن الواقع الذي قد وقع. قد جاءت الجمل الخبرية فيما بين اسمية وفعلية والفرق هو يعود إلي كيفية استخدامها؛ لأنّ الجمل الفعلية أكثر تكراراً في الخطبة بالنسبة للجمل الإسمية؛ ولأنّ غالبية الجو النصي في الخطبة تنحو نحو الحركة. استعان الإمام علي (عليه السلام) بالجمل الإسمية لثبوت المعاني كما نري أنّ الخطبة تبدأ في حمد الله تعالي بالجملة الإسمية لثبوت المعني وإذا أراد الإمام(عليه السلام) أن يرينا المثل العليا للإيمان والمؤمنين، استخدم

الجمل الإسمية كما قال: «**وإني لمن قوم لا تأخذهم في الله لومةُ لائمٍ، سيماهم سيما الصديقين، وكلامهم كلام الأبرار عمّار الليل ومنار النهار، متمسكون بحبل القرآن، يحيون سنن الله وسنن رسوله؛ لا يستكبرون ولا يعلون ولا يغلون ولا يفسدون. قلوبهم في الجنان وأجسادهم في العمل**». جاء هذا المقطع في مدح المؤمنين، لذلك نري غلبة الجمل الإسمية علي الجمل الفعلية، الأمر الذي يدل علي أن صفات المؤمنين ثابتة لا تتغير.

٥- ٣- ٢. الجمل الخبرية المؤكدة

إنّ التنوع في طرق تأكيد الخبر يؤدّي إلي تعدد أشكال المعاني بين يدي القارئ. استخدم الإمام علي(عليه السلام) الطرق المختلفة للتوكيد ليثبت المعاني في ذهن القارئ منها:

أ) القسم الصريح + لقد + فعل ماض:

كقوله: «**فلعمري لقد فوّق لكم سهم الوعيد وأغرق إليكم بالنزع الشديد ورماكم من مكان قريب.**» **كما هو المعلوم أنّ الإمام استخدم هذا الأسلوب ليعبّر عن أهمّية هذا المضمون بشدّة ويطّلع المخاطب بعداوة الشيطان. وكذلك قوله: «فلَعمرُ اللهِ لقد فَخرَ علي أصلِكم و وقعَ في حَسَبكم»**. في هذه الجملة يقسم الإمام علي(عليه السلام) بالله تعالي بأنّ مرصد الشيطان كله ذلّة وهوان وإبليس هو العدوّ الأكبر للإنسان.

ب) إنّ + لام التأكيد:

يكثر تكرار اللام في هذه الخطبة حيث أصبح ميزة أسلوبية فيها مثل قوله عندما يفخر بآله (عليهم السلام): «**إني لَمِن قومٍ لا تأخذُهم في اللهِ لومةُ لائمٍ**». استعان الإمام(عليه السلام) بهذا الأسلوب ليعرف المخاطب أنه مؤمن بالله تعالي وفطر علي هذا الإيمان واعتاد أجداده عليه. وكقوله: «**إنّ حكمَهُ في أهلِ السّماءِ وأهلِ الأرضِ لواحدٌ**». قد أكد الإمام في هذه الجملة علي العدل في أحكام الله تعالي ليذهب شك المخاطب ويذكر بأن حكمة الله تشمل جميع المخلوقات ولا مودّة خاصة بينه وبين مخلوقه.

ج) ألا+ قد+ الفعل الماضي:

يعدّ هذا الأسلوب أيضاً أسلوباً للتوكيد في نهجالبلاغة وخاصة في هذه الخطبة وكثرة تكراره تدل علي أهمية الجمل التي ورد فيها، قد يشير هذا الأسلوب إلي قوته في

قتال البغاة حيث يقول: «ألا وقد أمرَني اللهُ بقتالِ أهلِ البَغيِ والنَّكثِ والفَسادِ في الأرضِ». نعرف أن "ألا" حرف للتنبيه ويستخدم إذا أخبر عن أمر عظيم وحرف "قد" زاد من توكيد الفعل الماضي. وإليكم مثالاً آخر: «**ألا وقد قطعتُم قَيدَ الإسلام وعَطّلتُم حُدودَهُ وأمتُّم أحكامَهُ**». قد استعان الإمام(عليه السلام) بهذا الأسلوب لتوبيخ الكفار الذين قطعوا قيود الإسلام بواسطة هدم القيم الإسلامية ونسوا الأحكام الإسلامية.

د) تقديم ما حقه التأخير

إن التقديم عنصر من عناصر تحكيم اللغة الأدبية والذي يؤدّي إلي حيوية النص الأدبي. لما كان هذا الأسلوب مغايرا للقوانين السائدة علي اللغة فيعد انزياحاً في اللغة؛ لأنّ الأصل في الجملة الإسمية أن يتقدّم المسند إليه علي المسند، ولكن نري أن الأديب قد يخرج علي هذا القانون ليحوّل نصه إلي ظاهرة أسلوبية. تكمن وراء تقديم الألفاظ والعبارات وتأخيرها، أغراض بلاغية مهمّة، ولفتات جمالية بارزة، فباب التقديم والتأخير علي حسب قول عبد القاهر الجرجاني: «كثير الفوائد، جمّ المحاسن، واسع التصرّف، بعيد الغاية، ولا يزال يفتر لك عن بديعة، ويفضي بك إلي لطيفة» (الجرجاني، ١٩٧٨: ٨٣). إذا أجلنا النظر في هذه الخطبة رأينا أنّ التقديم شكل ظاهرة أسلوبية جاءت بالعديد من المعاني البلاغية كقوله: «**ولو أرادَ اللهُ أن يخلُقَ آدمَ من نورٍ يخطفُ الأبصارَ ضياؤُهُ، ويبهرُ العقولَ رواؤُهُ وطيبٍ يأخُذُ الأنفاسَ عرفُهُ، لفَعلَ**». حيث دلّ تقديم المفعول به (الأبصار، العقول، والأنفاس) علي أهمّيته كما نشأ من تقديمه الإيقاع والتوازن. وغالباً ما يتقدم الجار والمجرور ليفيد الاختصاص ويخلق السجع والإيقاع كقوله: «**ولكنّهُ كرّهَ إليهم التكابُرَ، ورَضيَ لهم التواضعَ وألصَقوا بالأرض خُدودَهُم، وعَفّروا في التُّرابِ وُجوهَهُم**». حيث أفاد تقديم الجار والمجرور التوازن بين الكلمتين (التكابر والتواضع) وبين (خدود ووجوه) وأضفي علي الجملة إيقاعاً مستساغا.

قد يقدم الخبر علي المبتدأ كما في قوله: «**ولقد دَخلَ موسي بنُ عمران ومعَهُ أخوه هارونُ علي فرعونَ وعليهما مَدارعُ الصُّوفِ، وبأيديهما العصيُّ**». نري أن الإمام(عليه السلام) أورد قصة موسي وأخيه لتبيين فلسفة الإبتلاءات الإلهية وأفاد من ثلاث جمل اسمية و قدّم الخبر علي المبتدأ في كل منها ليفيد معني الاختصاص.

٥- ٣- ٣. الجمل الفعلية الخبرية

تراوحت الجمل الخبرية في خطبة "القاصعة" بين الإسمية والفعلية وتنوعت الجملة الفعلية بين الفعل الماضي الذي يفيد الاستقرار والثبات وبني الفعل المضارع علي المعلوم والمجهول. وتمثل الجمل الفعلية -لاسيّما الفعل الماضي منها- سمة أسلوبية واضحة في هذه الخطبة، وتعود كثرة استخدام الفعل الماضي فيها إلي ذكر الأمثلة التي مضت أحداثها في التعبير عن الأمور الأخلاقية والاعتقادية والتأريخية. إليكم المقطع الذي أفاد فيه الإمام من الأفعال الماضية ليعبّر جدّيته في القتال مع القاسطين حيث قال: «**فأمّا الناكثونَ فقد قاتلتُ، وأمّا القاسطونَ فقد جاهدتُ، وأمّا المارقةُ فقد دوّختُ، وأمّا الشيطانُ فقد كفيتُه بصعقةٍ سُمِعَت لها وجبةُ قلبِه ورَجّةُ صدرِه**». تفيد الجمل الفعلية هنا معني الثبوت وتحقق الوقوع في الأمر لزرع الرعب والخوف في قلوب المارقين ثم تتوالي الجمل الفعلية وخاصّة المؤكدة بأسلوب (تقديم المفعول به+أمّا+ فقد+ الفعل الماضي) لتوكيد ثبوت هذا المعني.

٥- ٣- ٤. الجمل الإنشائية

يري النحاة أن الكلام يحتمل الصدق والكذب أو لا يحتمل. يسمّي النوع الأول – كما ذكرناه آنفاً- خبراً والنوع الثاني إنشاءً. أمّا الإنشاء فهو كلام لا يحتمل الصدق والكذب لذاته، وهو ما لا يحصل مضمونه ولا يتحقق إذا تلفظت به وهو ما يستدعي مطلوبًا غير حاصل وقت الطلب (القزويني، لاتا: ١٣/١). إذا أمعنا النظر في خطبة "القاصعة" رأينا أن الإمام(عليه السلام) اعتمد علي الجمل الإنشائية لنقل المفاهيم وخلع ثلاث منها سمة أسلوبية علي الخطبة بسبب كثرة ورودها فيها وهي: التحذير، والاستفهام والأمر.

أ) التحذير

يعدّ التحذير من الأساليب التي استخدمها الإمام علي(عليه السلام) للتنبيه وهو في الاصطلاح: «تنبيه المخاطب علي أمر مكروه ليجتنبه» (سامرائي، ٢٠٠٣ : ٨٩). للتحذير طرق مختلفة لكنّ الإمام(عليه السلام) كثيراً ما استخدم المحذر منه مكرراً مثل: «فاللهَ اللهَ في كبر الحَميةِ وفَخرِ الجاهليةِ.» حذّر الإمام في هذا المقطع أولئك الذين رسخ فيهم

كبر الحمية والعادات الجاهلية السيئة وقال في موضع آخر: «ألا فالحذرَ الحذرَ من طاعةِ سَاداتِكم وكبرائِكم الذين تكبَّروا عن حَسبِهم» نري أن الإمام(عليه السلام) حذّر فيه الناس بترديد لفظ (الحذر) من عظماء المتكبرين وكبرائهم.

ب) الاستفهام

يعد الاستفهام نوعاً آخر من أنواع الطلب في هذه الخطبة وهو يعني طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل بإحدى أدوات الاستفهام. جاءت أدوات الاستفهام بثلاثة أشكال في الخطبة منها: الاسم والحرف والظرف وقد خرجت معاني الاستفهام في كثير من المقاطع إلى المعاني الثانوية كالتحذير، والتقرير والتعجب والنفي والإنكار التي نكشفها بمعونة السياق. كان للاستفهام الملمح الأسلوبي البارز علي نطاق الخطبة وأكثر الإمام حرف "أ" بين أدوات الاستفهام بحيث إنها جاءت في الأغراض والمعاني المختلفة التي تختلف باختلاف السياق. علي سبيل المثال، يقول الإمام في توبيخ كبر الشيطان «**ألا تَرون كيف صَغَّرَهُ اللهُ بتكبُّرِه ووضعهُ بترفُّعه؟**». خرج الاستفهام في هذه الجملة إلي معني التحذير لأنّ الإمام(عليه السلام) يحذّر فيها المخاطب من التكبّر. وفي حكمة إقامة الحج يقول: «**ألا ترون أن اللهَ اختبرَ الأوّلينَ مِن لدن آدمَ إلي الآخرينَ من هذا العالم**». خرج الاستفهام فيها إلي معني التنبيه وأفاد الإمام(عليه السلام) في موضع آخر من الاستفهام لتقرير المعني: «**ألم يكونوا أثقل الخلائق أعباءاً وأجهد العباد بلاءاً** ».

ج) الأمر

وهو طلب الفعل من المخاطب على وجه الاستعلاء والإلزام وتم توضيفه في هذه الخطبة كثيراً وغالباً ما خرج عن معناه الأصلي إلي المعاني الثانوية التي تلائم ومضمون الخطبة التي بنيت علي التحذير والتنبيه. ومن لطيف ذلك قوله: «**فاتقوا اللهَ ولا تكونوا لنعمهِ عليكم أضداداً**». خرج الأمر(اتقوا) هنا من معناه الأصلي إلي معني التنبيه وفي موضع آخر خرج إلي معني العبرة نحو: «**أنظروا إلي ما في هذه الأفعالِ مِن قَمعِ نَواجمِ الفَخرِ وقَدعِ طوالعِ الكبرِ**». يسترعي الإمام(عليه السلام) في هذه الجملة انتباه المخاطب إلي آثار العبادة الجميلة التي تردع من كل كبر وغرور. ونموذج آخر لخروج الأمر إلي المعاني الثانوية قوله: «اجتنبُوا كلَّ أمرٍ كسرَ فقرتَهم وأوهنَ منَّتَهم وتدبّروا أحوالَ الماضين من المؤمنينَ قبلَكم». قد خرج الأمر إلي معني تنبيه المخاطب.

٥- ٣- ٥. الأسلوب الموجز للجمل

من السمات الأسلوبية البارزة في خطبة الإمام علي(عليه السلام) التي شغلت مساحة كبيرة فيها هي توظيف قصار الجمل المتتالية وذات معني واحد والتي تحمل في طياتها العنصرين: الإيجاز والإطناب؛ الإيجاز: لأنّ كلمات الجمل قليلة ومعانيها كثيرة والإطناب: بسبب ترادف الجمل وتكرار معانيها، مما أدّي إلي خلق أسلوب انفرد به"نهج‌البلاغة" وتميز به من بين سائر الكتب النثرية في عصره.

لما كان الإمام علي(عليه السلام) قد استخدم كثيراً من الأدوات المؤكدة في التعبير عن المعاني، نري أنّه قد اعتمد أيضاً علي الجمل القصيرة والمتوالية ذات معني واحد لتثبيت المعني في ذهن القارئ نحو قوله: «**قد اختبرَهم اللهُ بالمَخمصةِ، وابتلاهم بالمَجهدةِ، وامتحنَهم بالمخاوفِ ومخَضهم بالمكارهِ**». قد عبّر الإمام(عليه السلام) عن لزوم العبرة من الماضيين في الجمل القصيرة وأفاد من الأفعال التي تقع في الحقل الدلالي الواحد مثل: (اختبر، ابتلي، امتحن ومخض) ويقول في مقطع آخر: «**وإذا تفكرتُم في تفاوتِ حالِيهم، فالزموا كلّ أمرٍ لزمتِ العزةُ به شأنهم، وزاحتِ الأعداء له عنهم، ومدّت العافية به عليهم، وانقادت النعمةُ له معهم، ووصلتِ الكرامة عليه حبلهم من الاجتنابِ للفرقة**». قد أجمل الإمام(عليه السلام) القول في أسباب العزّة والجلال في قمع الأعداء، والحصول علي العافية والنعمة والكرامة وعبّر عن كل منها في الجمل القصيرة وربط الجمل باستخدام الحروف الجارة وخلق كلاماً جميلاً وموسيقي مستساغة لخفّته وعذوبة ألفاظه.

٥- ٤. المستوي البلاغي

إن الكشف عن المنبهات الأسلوبية ضمن النص يؤكد قدرة المبدع على تطويع اللغة لتتناسب تماماً مع ما يريده من معنى فيعمد لتنويع خطابه الشعري بالانزياحات المقصودة إذ إن اللغة خلق إنساني ونتاج للروح، وإنها اتصال ونظام ورموز تحمل الأفكار وتظهر شعرية النص وقدرة المبدع من خلال عرض هذه الأفكار بنمط إبداعي يغاير النمط التعبيري العادي الذي لا يحمل أي صنعة أدبية (درويش، لاتا: ٦٤). وبما أننا نبحث عن الخصائص التي تضفي علي النص السمة الأسلوبية، فندرس هنا الاستعارة والتشبيه والكناية والمجاز لما تحمله هذه الصور البيانية من وظيفة توصيلية.

٥- ٤- ١. الاستعارة

الاستعارة في اللغة مأخوذة من العارية وعلي المستوي الاصطلاحي تعدّ ضرباً من المجاز القائم علي التشبيه أو هي صورة تشبيهية لا يصلح دخول التشبيه عليها بعد حذف أحد طرفيها ولها قرينة مانعة لإرادة المعني الأصلي. وإذا ما اعتمدنا علي الاستعارة للكشف عن طبيعة توظيفها الأسلوبي في هذه الخطبة فرأينا أنّها أكثر انتشاراً بالنسبة لأنماط أخري من الصور البيانية. من الاستعارات المصوّرة الموحية في خطبة "القاصعة" قوله في مفتتح الخطبة: «**الْحَمْدُ لِلَّه الَّذِي لَبِسَ الْعِزَّ وَالْكِبْرِيَاءَ**». فالمراد بالفعل"لبس" في هذه الجملة معناه المجازي وهو"لازَم" أو "ملَك" ولكن أسلوب الإمام انزياح عن لفظ اللزوم أو المالك وما يمكن أن يحل محله من ألفاظ الحقيقة إلي لفظ "لبس" الدال في حقيقته علي الرداء الذي يغطي الجسم، معني هذا أنّ لفظ"لبس" لم يحتفظ بمدلوله الأصلي وإنما اكتسب مدلولاً جديداً هو المصاحبة أو اللزوم الذي يفهم من سياق الجملة، هكذا فإن الانزياح حدث للفظة "لازم" التي حذفت من السياق واستعيرت لفظة "لبس" للدلالة عليها ويمكن توضيح هذا العدول بالشكل التالي:

الدال (لبس) المدلول الأول (يرتدي أو اكتسي) المدلول الثاني: (لازم أو صاحب)

استعان الإمام(عليه السلام) بالطبائع الفنية بطريقة استعارة الأمور المعنوية بدل الأمور الحسية كقوله: «وَاعتمِدُوا وَضعَ التَّذَلُّلِ علَى رُءُوسِكمْ وَإِلْقاءَ التَّعزُّزِ تَحْتَ أَقْدَامِكُمْ وَخَلْعَ التَّكَبُّرِ مِنْ أَعْنَاقِكُمْ». فأصل الكلام: واعتمدوا وضع "التاج أو الإكليل" علي رؤوسكم، ولكن تعبير الإمام انزاح عن لفظ "التاج" إلي لفظ "التذلل" كما انزاح عن لفظة "الحديد" إلي لفظة "التكبر" والانزياح إلي هاتين اللفظتين له مسوّغاته وأسبابه الدلالية، لأنّ في التذلل دليلاً علي الخضوع والتواضع وأنّ الإنسان الضعيف لا يليق به إلا التذلل ولا يجوز له إلا التواضع وإنّ في اختيار الكلمتين حسنَ بيانٍ وجمال تصوير. يقول الإمام(عليه السلام) في موضع آخر: «**فانظُروا إلى مواقعِ نِعَمِ الله عليهم حينَ بَعثَ اليهم رسولاً فعَقدَ بِملّتِه طاعتَهم و جَمعَ على دعوتِه ألفتَهم، كيف نَشرَت النعمةُ عليهم جناحَ كرامتِها وأسالت لهم جداولَ نعيمِها**». فإنّ الجملة تتحدث عن بركة مبعث الرسول(صلى الله عليه وآله) وكيف فرشت مائدة النعم الإلهية ببعثه. فنري أنّ الإمام(عليه السلام) منح النعمة

شخصية حية وحذف المشبه به وهو الطير وأشار إلي ميزته الخاصة وهي الجناح وهذا يعني أنّ نعم الله تعالي كالطير التي نشرها في أرجاء المعمورة.

هذه الخطبة مزيّنة بلون آخر من الاستعارة المسماة بالاستعارة التمثيلية التي يكمن سر جمالها في إيجازها، بحيث قد جمع الإمام(عليه السلام) كثيراً من المعاني في تركيب قصير، مثل قوله: «**تقولون النار ولا العار**» تشير هذه الجملة إلي مثل يضرب في الجاهلية: «النار ولا العار». وقيل أيضاً إنّها منسوبة إلي أوس بن حارثة الذي قد قال: «المنيّة ولا الدنيّة، والنّار ولا العار». ونري نموذجاً آخر من الاستعارة التمثيلية في قوله: «**وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّهِ**». يستخدم هذا المثل إذا أراد الإنسان أن يشير إلي ملازمة الشيئين وعدم مفارقتهما.

٥- ٤- ٢. التشبيه

يعتمد التشبيه في حقيقته علي عقد مشابهة بين أمرين مختلفين يتفقان في صفة أو أكثر (شفيعي كدكني، ١٣٨٣: ٥٣). وكثافته في هذه الخطبة جعلته ظاهرة أسلوبية. تشبيه الجمع هو أكثر أنواع التشبيه انتشاراً في الخطبة وهو تشبيه يتعدد فيه المشبه به. وبمعني آخر يأتي للمشبه الواحد عدد من المشبه به ومرد ذلك إلي اشتراك لفظة المشبه في صفة أو حالة أو أكثر. كثيراً ما تتحول اللغة عند الإمام علي(عليه السلام) من التعبير إلي التصوير ومن المفردة اللغوية إلي الصورة وأقرب شيء إلي الصورة فيها هو التشبيه البليغ. هناك مشبه ومشبه به والأداة محذوفة ووجه الشبه متعدد الأبعاد كما يعتمد علي مشاركة المتلقي وخياراته تعتمد علي الإيحاء لا المنطق كقوله: «**فإنهم قواعدُ أساس العصبيةِ، ودعائمُ أركانِ الفتنةِ، وسيوفُ اعتزاءِ الجاهليةِ**». يكشف التشبيه في هذه الجملة عن صفات المتكبّرين ومن الملاحظ أنّ كلاً من المشبهات الثلاثة يتكوّن من ثلاث كلمات يضاف بعضها إلي بعض علي صورة المجموع ليبين لنا شدّة اتصاف المشبه بالمشبه به؛ إضافة إلي التعبير عن جماليتها.

يعدّ قول الإمام(عليه السلام) لتوصيف سادات المتكبّرين أطولَ التشبيهات في هذه الخطبة، حيث يقول: «**هم أساسُ الفُسوقِ، وأحلاسُ العُقوقِ اتّخذَهم إبليسُ مَطايا ضلال، وجنداً بهم يَصول علي النّاسِ، وتراجمه ينطق علي ألسنتِهم، استراقاً لعقولِكم ودخولاً في عيونِكم، ونفثاً في أسماعِكم فجعلكم مرمي نبلِهِ، وموطِيءَ قَدمِهِ، ومأخذَ يدِهِ**». ومن

المعلوم أن الإمام(عليه السلام) استخدم عدة المشبه به في وصف المتغطرسين وذوي العنجهية وهذا بديع في نوعه. علي أية حال، إنّ الميزة الأولي للتشبيه في هذه الخطبة وروده بصورة الجمع والذي جاء جميعه في توبيخ المتكبّرين وتأنيبهم وكأنّ الإمام(عليه السلام) لا يريد أن يصفهم بصفة بل يستخدم الأوصاف المتعددة في مذمتهم وتصوير قبح أفعالهم.

٥- ٤- ٣. الكناية

من المحسّنات الأخري التي كثر ورودها في الخطبة هي الكناية التي احتلت مساحة مثيرة للانتباه. تعدّ الكناية عن الصفة والكناية عن الموصوف أكثر أنواع الكناية تكراراً في الخطبة. وغايتنا في هذا المقام الوقوف علي نماذج من الكنايات لإظهار ما فيها من انزياح دلالي، فالكناية من التعبيرات البيانية الغنية بالاعتبارات والمزايا والملاحظات البلاغية ولهذا توظيفها في هذه الخطبة يحقق العديد من الأهداف ولعل أهم تلك المقاصد إفادة المبالغة في المعني، كما في قوله: «**وَلا تَكُونُوا كَالْمُتَكَبِّرِ عَلَى ابْنِ اُمِّهِ مِنْ غَيْرِ ما فَضْلٍ جَعَلَهُ اللّهُ فيهِ سِوى ما اَلْحَقَتِ الْعَظَمَةُ بِنَفْسِهِ مِنْ عَداوَةِ الْحَسَدِ**». فالمراد من اللفظة «الْمُتَكَبِّرِ عَلَى ابْنِ اُمِّهِ» هو قابيل وهو الكناية عن موصوف؛ بمعني آخر عدل الإمام علي (عليه السلام) عن اسم قابيل مباشرةً؛ ليكون كلامه أبلغ من التصريح وركز علي معني العجب والتكبّر الذي جعله قاتلاً لأخيه هابيل.

يتحدث الإمام علي(عليه السلام) في هذه الخطبة عن شجاعته في القتال مع الكفّار في قوله: «**أنا وضعتُ فى الصغيرِ بكلاكلِ العربِ وكسرتُ نواجمَ قُرونِ وربيعةَ ومُضَر**». هذا التعبير كناية عن صفة شجاعة الإمام ومهابته. وكذلك قول الإمام(عليه السلام) في وصف أرض الحجاز: «**لا يَزْكُو بِها خُفٌّ، وَلاحافِرٌ وَلاظِلْفٌ ثُمَّ أَمَرَ آدَمَ** (عليه السلام)**وَوَلَدَهُ أَنْ يَثْنُوا أَعْطافَهُمْ نحوَه**». نري في هذه الجملة كنايتين؛ تتمثل الكناية الأولي في قوله(لا يزكو بها خفّ) الذي يدلّ علي صفة جدب الأرض وقفرها وأمّا الثانية فمتمثلة في قوله(يثنوا أعطافهم نحوه) فالمراد هنا طواف الكعبة. اعتمد الإمام(عليه السلام) أيضا علي الكناية في وصف الفقراء في قوله: «**فتركوهم عالةً مساكيﻥَ إخوانَ دَبرٍ ووَبرٍ أذلّ الأمم داراً**». فالمراد من اللفظتين (دبر ووبر) هنا الإبل وهو كناية عن الموصوف.

٥- ٤- ٤. المجاز

المجاز يعني استخدام الكلمة في معني غير المعني الذي وضعت له في أصل اللغة مع وجود قرينة تمنع من إرادة المعني الأصلي، وينقسم هذا المجاز إلي قسمين هما: المجاز المرسل، والاستعارة. إذا كانت العلاقة بين المعني الأصلي والمجازي هي المشابهة سمّي بالاستعارة أمّا المرسل فسمّي به لأنّه غير مقيّد بعلاقة المشابهة (تفتازاني، ١٣٩١: ٣٣٦). واستناداً بما تقدّم آثرنا أن يكون الحديث هنا مقتصراً علي المجاز المرسل بسبب كثافته ووفرته في الخطبة. علي سبيل المثال يقول الإمام علي(عليه السلام) في التعبير عن كيفية عداوة الشيطان مع الإنسان: «**يضربون منكم كلّ بنان**». تعبّر هذه الصورة الجميلة عن كيفية استخدام المجاز، فقد عبّر عن "الأيدي والأرجل" بالبنان وهذا مجاز مرسل بعلاقة الجزئية، حيث يكمن الغرض الجمالي لتوظيف هذا المجاز في سلوك الشيطان، مما يدخل في أصغر جزء من وجود الإنسان ويرينا عدواته العميقة من كل جانب. وإليكم نماذج أخري من المجاز المرسل بالعلاقة "الجزئية" في قوله: «**طعناً في عُيونِكم، وحزّاً في حُلقومِكم ودقاً لمناخرِكم**». قد آثر الإمام علي (عليه السلام) التعبير بالعيون والمراد الأجسام من باب التعبير بالجزء وإرادة الكل، فالعلاقة الجزئية هي التي سوّغت الانتقال من المدلول الحقيقي وهو عين الإنسان إلي المدلول المجازي وهو جسمه، هكذا فإنّ العدول حدث للفظة "الأجسام" التي حلّت محلّها لفظة "عيون"، لأنّ العيون هي أظهر الأعضاء علي المشاهدة وأجلّها قدراً وكذلك الأمر في لفظتين "الحلقوم والمناخر"، فقد اختار الإمام التعبير عن الحلقوم والمراد به الأعناق والتعبير عن المناخز والمراد به الرؤوس. إن الهدف الرئيسي لاستخدام هذه المجازات المتتالية، التركيز علي شدة عداوة الشيطان للإنسان والتحذير منه كأخطر عدو له.

إذا دققنا النظر في الخطبة رأينا وفرة هذا النوع من المجاز أي: المجاز المرسل بالعلاقة الجزئية مما أدّي إلي ظاهرة أسلوبية مثل قوله: «**واتّعظُوا بمَثاوي خُدودِهم ومَصارع جنوبِهم**». يسعي الإمام(عليه السلام) مع توظيف هذه الصور المجازية الجميلة إلي تقديم المفاهيم العميقة لفكرة الموت، ويذكر بأن العزّة والجلال لله تعالي ولايتجاوزه إلي أحد وعاقبة الإنسان -لا محالة- دفنه في التراب، فلذلك ينبغي ألا يتكبّر. قد خصّت الخطبة الخدود بالذكر؛ لأنّ الجمال يبدو أثره علي الخدود والموت هو السبب الرئيسي لوضع

الخدود في التراب، ولذلك كان استخدامها في هذه الجملة ذا قيمة تأثيرية بالغة، فهو يشعر بخطورة الوضع الذي يعيش فيه الإنسان المتكبر، في حال أنّه يشرف علي الموت في كل لحظة، لهذا آثر الإمام(عليه السلام) استخدام لفظة "الخدود" لأنّها هي الأقدر علي نقل هذه الدلالات إلي المتلقي.

٥- ٥. المستوي الفكري (الأيديولوجية)

إنّ جميع المؤشرات الأدبية واللغوية وسائر المستويات الأسلوبية تحمل في طياتها أفكار صاحب الأثر. في الواقع أن وجهة نظر أديب أو كاتب حول البيئة الخارجية وشعوره بالمسؤولية أمام مشاكل المجتمع والانتقاد منها، تمهّد الطريق في معرفة المستوي الفكري لأثرٍ ما. يقول سيروس شميسا عن أهمّية التعرف إلي المستوي الفكري: «عادة ما لايهتم النقاد في الدراسة الأسلوبية بالمستوي الفكري. قد ركز بهار أيضاً في دراساته الأسلوبية علي المستوي اللغوي فقط. أعتقد أن البحث عن المستوي الفكري للأثر الأدبي يساعد الدارسين علي تحديد أسلوب العصر وأسلوب الفرد. زد علي ذلك أن دراسة الأسلوب في هذا الجانب تكون أروع وأكثر فائدة له» (شميسا، ١٣٧٨: ١٥٧). يري شميسا أنّ مقارنة البني الفكرية التي يحصل عليها الدارس الأسلوبي بعد دراسة الميزات اللغوية والأدبية وبهدف تعيين أوجه التشابه والاختلاف الأسلوبية تساعده أن يقيّم المواضيع المشابهة في أعمال كبار الأدباء في العصور المختلفة. علي سبيل المثال، قد تمثلت في أعمال الشعراء الكبار بعض القضايا بأشكال متنوعة كإدراك الحب وكيفياته، الأوصاف المتنوعة من مناظر الطبيعة كطلوع الشمس وغروبها، اختلاف الربيع والخريف، إدراك الحقيقة في العصور المختلفة، ومفهوم الحياة وأمثالها» (المصدر نفسه: ٣٤٦).

بإمكاننا أن نقول إن أهم القضايا في دراسة هذه الخطبة من منظور الأسلوبية، هي دراسة مميزات الإمام (عليه السلام) الفكرية؛ لأنّ الهدف من دراسة جميع المستويات الماضية كان التوصول إلي أيديولوجية الإمام(عليه السلام) واظطراباته الفكرية. «إن المحور الرئيسي في هذه الخطبة هو الاحتراز من التكبّر ومذمته والانتقاد من الذين يتعصّبون للأمور العبثية وغير الإلهية» (قائمي، ١٣٨٩، ٢٢١). ولما كانت هذه الخطبة طويلة قسمنا مميزات الإمام (عليه السلام) الفكرية إلي المحاور التالية:

٥- ٥- ١. معرفة الشيطان وطرق تأثيره

يؤكد الإمام (عليه السلام) في أسلوب متناسق، علي أحد من أهم الأوصاف التي قد نهي الله تعالي عنها بشدة. افتتح الإمام(عليه السلام) خطبته بقضية عظمة الله تعالي ولزوم التواضع أمام الذات الإلهية ولأهمّية هذا الموضوع يشير إلي طرد الشيطان من قبل الله تعالي بسبب تكبّره ونخواته. يذكر الإمام (عليه السلام) آياتٍ من القرآن الكريم ويتذكر فيها أن إبليس هو أخطر عدو للإنسان وكذلك يعدّ الحزازات الجاهلية وسيلة لنفوذ الشيطان في قلوب الإنسان ويحذر المخاطب من مثل هذه المخاطر. صرّح الإمام(عليه السلام) في هذه الخطبة بقضية العصبيات غير المحمودة ويعدّها من خطرات الشيطان: «**فاطفئُوا ما كمنَ في قُلوبِكم مِن نيرانِ العَصبيةِ وأحقادِ الجاهليةِ، فإنّما تلك الحَميةُ تكونُ في المُسلمِ مِن خَطَراتِ الشّيطانِ ونَخَواتِهِ ونَزَغاتِهِ ونَفَثاتِه**».

٥- ٥- ٢. الاعتبار من الماضين

يتطرق الامام (عليه السلام) في كثير من أقسام هذه الخطبة إلي أهمية الاعتبار مما أصاب الأمم المُستكبرين من قبلهم وعدم اقتراف أخطائهم في الاتباع عن الشيطان والتكبّر حيث يقول: «اعتبروا بما أصابَ الأمَمَ المُستكبرينَ مِن قَبلِكم مِن بأسِ اللهِ وصَولاتِه، ووَقائعِه ومَثُلاتِه واتّعظُوا بمَثاوي خُدودِهم ومَصارعِ جُنوبِهم واستعيذُوا باللهِ مِن لواقِحِ الكبرِ كما تَستعيذونَهُ مِن طَوارقِ الدَّهرِ».

٥- ٥- ٣. الدعوة إلي الاتحاد والنهي عن الفرقة

يعد التضامن الاجتماعي عنصراً آخر في نهج‌البلاغة. إن الوحدة والفرقة قد كثر ورودهما في كلام الإمام(عليه السلام) وصُرح بنتائج كلّ منهما. وقد ورد في هذا المجال بعض المضامين كالائتلاف، والاجتماع والتفرقة والتشعب وأمثالها. يري الإمام(عليه السلام) أن الوئام والتضامن بين أبناء المجتمع من أهم أسباب نجاحهم، حيث يهتدي بهما المجمتع إلي الترقي والتقدم كما تحدو الفرقة والشقاق أبناء المجتمع إلي الهلاك. (هاشمي،١٣٧٦: ٢٧) نري في خطبة "القاصعة" تحليلا مثيراً للانتباه حول بروز الحضارات الماضية وتلاشيها وكذلك سهم الاتحاد والتفرقة كعنصرين رئيسين في هذا الموضوع: «**فانظُروا كيفَ كانوا حيثُ كانت الأملاءُ مُجتمعةً والأهواءُ مؤتلفةً والقلوبُ معتدلةً والأيدي مترادفةً**

والسيوفُ متناصرةً والبصائرُ نافذةً والعزائمُ واحدةً ألم يكونُوا أرباباً في أقطارِ الأرَضينَ وملوكاً علي رِقابِ العالمينَ فانظُروا إلي ما صاروا إليه في آخرِ أُمورِهم حينَ وَقعت الفُرقةُ وتشتّتت الأُلفةُ واختلفت الكلمةُ والأفئدةُ وتَشعّبُوا مُختلفينَ وتَفرّقُوا مُتحاربينَ قد خلع اللهُ عنهم لباسَ كرامتهِ وسلَبَهم غَضارةَ نِعمتهِ وبَقيَ قَصَصُ أخبارِهم فيكم عِبراً للمُعتبرين».

٥- ٥- ٤. الجميع بين يدي الابتلاء الإلهي

يشير الإمام(عليه السلام) في هذه الخطبة إلي الابتلاءات الإلهية ويتذكر أن االأنبياء قد اختبروا بالمصائب الدنيوية أمّا سائر الناس فيختبرون بالأموال والأولاد والتكبّر، وكان لجميع هذه القضايا جانب تنبيهي، وبعد ذلك ينتقد من الذين ينهزمون أمام هذه الفتن: **«وكانوا قوْماً مُستضْعَفينَ قَد اختَبَرَهُمُ اللّهُ بِالْمَخْمَصَة وَابْتَلَاهُمْ بِالْمَجْهَدَة وَامتحنَهمْ بِالْمَخَاوف وَمَخَضَهُمْ بِالْمَكَارِه فَلَا تَعْتَبِرُوا الرِّضَى وَالسُّخْطَ بِالْمَالِ وَالْوَلَدِ جهلًا بمواقع الْفتنة وَالِاخْتبَارِ فِي موْضع الْغنَى وَالِاقْتدَار».**

٥- ٥- ٥. أهمية الجهاد في الإسلام

يكون الجهاد في سبيل الله تعالي من الفرائض الهامة في دين الإسلام ويعدّ طريقاً للدفاع عن القيم الدينية واستقلال المجتمع الإسلامي. كثيراً ما نري أن الإمام(عليه السلام) يشير إلي لزوم الجهاد مع الناكثين ولاسيّما الخوارج منهم. في الواقع نري فكرة الجهاد في سبيل الله تعالي، في معظم كلمات الإمام(عليه السلام) كقوله: **«ألا وَقدْ قطعتُمْ قَيْدَ الْإِسْلَام وَعَطّلْتُمْ حُدُودَهُ وَ مَتُمْ أَحْكَامَهُ أَلا وَقَدْ أَمَرَنِي اللّهُ بقتَال أَهْلِ الْبَغْيِ وَالنّكْث وَالْفَسَاد فِي الْأَرْضِ فَأَمّا النّاكثُونَ فَقَدْ قَاتَلْتُ وَأَمّا الْقَاسطونَ فقد جاهدْتُ وَأَمّا الْمارقةُ فقدْ دوّخْتُ وَأَمّا شَيْطَانُ الرّدْهَة فَقَدْ كُفيتُهُ بِصَعْقَة سُمعَتْ لَهَا وَجْبَةُ قَلْبِهِ وَرَجّةُ صَدْرِه».**

٥- ٥- ٦. الإيمان بالتوحيد ونبوة الرسول(صلى الله عليه وآله) من بدء الرسالة

يتذكر الإمام (عليه السلام) في هذه الخطبة، أنه نشأ في حضن الرسول ويعتبر نفسه أولّ مؤمن بنبوّته ويشير إلي معجزة طاعة الشجرة منه ويصدّق وحدانية الله تعالي وحقانية الرسول(صلى الله عليه وآله): **«فقلتُ أنا لا إلَهَ إلّا اللّهُ إنّي أوّلُ مؤمنٍ بكَ يا رَسولَ اللّه وَأوّلُ منْ أقرّ بِأنّ الشّجرَةَ فعلَتْ مَا فعلَتْ بأَمْرِ اللّهِ تَعَالَى تَصْديقاً بِنُبُوّتِكَ وَإِجْلَالًا لِكَلِمَتِكَ».**

٦. الخاتمة

في دراستنا لخطبة "القاصعة" توقفنا عند ملامحها الأسلوبية وتوصلنا إلي النتائج التالية:

١. في المستوي الصوتي تبين لنا أن الموسيقى في هذه الخطبة تقوم على مرتكزين: أولهما انسجام الألفاظ وتآلف أصواتها في السياق، من خلال الاستعمال المناسب للفظة، واختيار الموقع المناسب لها. والثاني: الإيقاع الناشئ من بعض المحسنات البديعية كالطباق وتنسيق الصفات فجميع هذه الفنون ترتكز على أصوات أو ألفاظ تتكرر بغية تقوية المعاني وإبرازها. والموسيقي المعنوية فيها ذات إيقاع منظم وظاهرة تنسيق الصفات توظفت في سياق معين وخضعت للتناغم والانسجام، فأحدثت ضروباً من الموسيقي والنغم.

٢. في المستوي التركيبي خلصت الدراسة إلي أن الجمل الخبرية في خطبة "القاصعة" تراوحت بين الإسمية والفعلية، لكنّ الجمل الفعلية كثر ورودها في الخطبة، وتنوعت بين الفعل الماضي الذي يفيد الاستقرار والثبوت والفعل المضارع المبني علي المعلوم والمجهول، حيث عدّت الجمل الفعلية -لاسيّما الفعل الماضي منها- سمة أسلوبية واضحة في هذه الخطبة، ومرد ذلك إلي الوقائع التاريخية التي جاءت في الخطبة للاعتبار منها. زد علي ذلك، أن الإمام(عليه السلام) أفاد في هذه الخطبة من مختلف الأساليب الخبرية والإنشائية. أما أسلوب الاستفهام فكان أكثر أنواع الإنشاء انتشاراً في الخطبة وغالباً ما خرج من معناه الأصلي إلي معانٍ أخري كالتقرير والتوبيخ. والسمة الأخري التي تميز بها أسلوب الإمام علي(عليه السلام) هي توظيف قصار الجمل المتتالية وذات معني واحد والتي تحمل في طياتها العنصرين: الإيجاز والإطناب اللذين تسببا في خلق أسلوب انفرد به "نهج البلاغة" من بين سائر الكتب النثرية في عصره.

٣. أفاد الإمام(عليه السلام) في هذه الخطبة من التعابير المركبة للتعبير عن المعاني منها التركيب الإضافي والوصفي. والإضافة التشبيهية التي تعد ضربا الإيجاز، لها انتشار واسع في الخطبة.

٤. أما في المستوي البلاغي فتعد الاستعارة المكنية من أهم الجوانب الجمالية في الخطبة. فقد جسّد الإمام(عليه السلام) بالاعتماد علي الاستعارة التمثيلية أمورا معنوية في ذهن المتلقي وحاول علي تثبيت الأصول الدينية.

٥. يتمحور المستوي الفكري علي معرفة الشيطان، لزوم الاتحاد في المجتمع الإسلامي، أهمّية الجهاد، الاعتقاد بالتوحيد ونبوّة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ولزوم الاعتبار من الأمم الماضية.

قائمة المصادر والمراجع

١. نهج‌البلاغة (١٣٨٨ش)، ترجمه بالفارسية محمد دشتي، قم: نسيم حيات.
٢. ابن‌منظور، محمد بن مكرم (١٩٦٨م)، لسان‌العرب، بيروت: دار صادر.
٣. البحراني، ابن ميثم بن علي (١٣٦٢ش)، شرح نهج‌البلاغه، الطبعة الثانية، بيروت: نشر الكتاب.
٤. تفتازاتي، سعدالدين (١٣٩١)، مختصر المعاني، الطبعة السابعة، قم: منشورات إسماعيليان.
٥. درويش، احمد (لاتا)، دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، القاهرة: دار غريب.
٦. رجايي، نجمة (١٣٧٨ش)، «قصيده كليه ميراث‌دار سوررئاليم، سمبوليسم و تصوف»، مجله دانشكده ادبيات وعلوم انسانة دانش‌گاه تهران، شماره ١٥٠، تابستان.
٧. سامرائي، فاضل صالح (٢٠٠٣م)، معاني‌النحو، الطبعة الثانية، القاهرة: شركة العاتك.
٨. شفيعي‌كدكني، محمدرضا (١٣٨٦ش)، موسيقي شعر، چاپ دهم، تهران: آگاه.
٩. ---------- (١٣٨٣ش)، صور خيال در شعر فارسي، چاپ نهم، تهران: آگاه.
١٠. شميسا، سيروس (١٣٧٨ش)،كليات سبك‌شناسي، تهران: فردوس.
١١. ---------- (١٣٨٥ش)، سبك‌شناسي شعر، تهران: ميترا.
١٢. عبدالله الجبر، محمد (١٩٩٨م)، الأسلوب النحو دراسة تطبيقية في علاقة الخصائص الأسلوبية ببعض الظاهرات النحوية، بيروت: دار العودة.
١٣. عبدالمطلب محمد (١٩٩٤م)، البلاغه و الأسلوبيه، القاهره: دار نوبار.
١٤. فتوحي، محمود (١٣٩١ش)، سبك‌شناسي: نظريه‌ها، رويكردها و روش‌ها، تهران: سخن.
١٥. قائمي، مرتضي (١٣٨٩ش)، دراسة في نصوص من نهج‌البلاغه، همدان: دانش‌گاه بوعلي‌سينا.
١٦. قزويني، جلال‌الدين (لاتا)، الإيضاح في علوم‌البلاغة، تصحيح جمع من الأساتذه في جامعة الأزهر، القاهرة: مطبعة السنة المحمديّه.
١٧. محمود خليل، ابراهيم (٢٠١١م)، النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلي التفكيك، عمان: دار المسيره.
١٨. هاشمي، ضياءالدين (١٣٧٦ش)، «عوامل تغييرات اجتماعي در نهج‌البلاغه□»، مجله معرفت، شماره ٢١، تابستان.
١٩. الخولي، أمين، (١٩٦١م)، مناهج التجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب ، الطبعة الأولى، بيروت: دار المعرفة.
٢٠. ميشال عاصي، (لاتا)، الفن والأدب؛ بحث في الجماليات والأنواع الأدبية، بيروت: دار الأندلس للطباعة والنشر.